

بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

تنمية قصة كعب " حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستتبث الوحي..."

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد جاء في خبر كعب بن مالك -رضي الله تعالى عنه- لما تخلف عن غزوة تبوك فأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بهجره حتى مضى عليه في ذلك أربعون ليلة، أي: في الهجر، يقول: " واستتبث الوحي -أي تأخر - حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، إذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأتيني فقال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأمرك أن تعزل أمرأتك".

قد هُجروا أربعين ليلة، وجاءه كتاب من ملك الغساسنة يحرضه على أن يلحق به، ثم يأتيه أيضاً خطاب آخر من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأمره بأن يعتزل امرأته، فانظروا إلى التسليم التام والانقياد والانضباط الكامل، فقال -رضي الله عنه-: "أطلقها أم ماذا أفعل؟" ولم يقل: لماذا هذا كله؟ ولم يقل: التخلف عن عزوة تبوك لا يستحق كل هذا الهجر، بل امتنع لأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}** [الأحزاب: 36]، فينبغي على الإنسان أن يفتش في نفسه، هل أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نافذ فيه، والله -عز وجل- يقول: **{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** [آل عمران: 31]، ويقول الله -عز وجل-: **{الَّذِي أُولَئِي بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ}** [الأحزاب: 6] فحكمه أنفذ فيهم من حكمهم على أنفسهم، وهو أولى -صلى الله عليه وسلم- من أنفسهم، وهو أولى بهم في قضاء ديونهم إذا ماتوا وليس لهم ما يوفون به، إلى غير ذلك من المعاني.

فالملخص أن حكم النبي -صلى الله عليه وسلم- ينبغي أن يكون أنفذه من حكم العبد على نفسه، ونحن للأسف الشديد إذا فتشنا في أحوالنا وجدنا تكريطاً كثيراً، ونجد أن الإنسان يتخير ويتشهى ويتتردد في بعض الأمور، ويتجاهل عنها.

يقول: "فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟" فقال: لا، بل اعتزلها، فلا تقربنها، فقط نهي عن معاشرتها، يقول: " وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك" يعني: هلال بن أمية، ومرارة بن الريبع.

يقول: "فقلت لأمرأتي: الحق بأهلك فكوني عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر"، الحق بأهلك هذه من كنایات الطلاق، فالطلاق منه ما هو صريح مثل أنت طالق، ومنه ما هو كنایة مثل الحق بأهلك، والكنایات يُسأل الإنسان عنها بحسب قصده، إن قصد الطلاق فهي طلاق، وإن لم يقصد الطلاق فليست بطلاق، وكعب -رضي الله عنه- لم يقصد الطلاق، وإنما يقصد أن تبقى عندهم حتى يحكم الله -عز وجل-.

يقول: "فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالت له: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع" أي: أنه لا يستقل بحاجته، فيحتاج إلى من يقوم بشئونه، فهو رجل كبير في السن، "ليس له

خادم، فهل تكره أن أخدمه؟، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- ((لا، ولكن لا يقربنك))، فقالت: "إنه والله ما به من حركة إلى شيء"، لا يخطر في باله هذا، "ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا".

يقول: "قال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه" جاءوا إلى كعب مرة ثانية، أول شيء قالوا له: اكذب على النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلما كذب أهل النفاق ويستغفر لك النبي -صلى الله عليه وسلم-، وجاءوه يوم سمعوا أن هلال بن أمية امرأته أذن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن تبقى عنده.

وهنا إشكال: النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن مكالمتهم، فكيف كلموه، وقالوا هذا الكلام؟ قد يقال: إن النهي كان لعموم الناس، لكن أهله كامرأته وولده غير منهيين، أو أن من يقوم بخدمته غير منه، أو أن يقال: لعل هؤلاء فهموا أن النهي إنما هو نهي عن المbasطة، وهذا ليس بمباسطة، وإنما فيه توجيه له بشيء يذهب به إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويحتمل أن يكون ذلك وقع من بعض ضعفة الإيمان أو المنافقين، فكانوا موجودين في المدينة.

يقول: "فقلت: لا استأذن فيها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وما يدراني ماذا يقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب" وهذا هو الفرق، هلال بن أمية رجل كبير في السن لا يهم بشيء، وهذا رجل شاب، معناها أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- قد يمنعه من ذلك؛ لأن المظنة تنزل منزلة المئنة، والشيء الذي يغلب وقوه ينزل منزلة الواقع، فكعب بن مالك -رضي الله عنه- فهمها. ولذلك ينبغي للعقل أن يدرك ما يأتي وما يذر، قد جاء عن علي -رضي الله عنه-: "أن الأحمق هو الذي لا يعرف لا، حتى تقال له: لا، والعاقل يعرف موارد لا قبل أن يردها" فلا يقدم على شيء وهو يعرف أنه سيقال له: لا، هذا العاقل، لكن الذي لا يعقل هو الذي يخطئ ويطلب أموراً فوق الإمكان.

وهذا في أمور كثيرة جداً، هذا تجده في التبرعات المالية، وغيره مما يتعاطاه الناس من العقود، ومن المعاملات وغيرها، تجد إنساناً أحياناً يأتي بفكرة أو مشروع يعرف أنه لا أحد يوافقه على ذلك، ومع ذلك يطرح هذه الفكرة، وهو يعلم أنه سيقال له: لا، ما الفائدة؟.

يقول: "فلبشت في ذلك عشر ليالٍ يعني: زيادة على الأربعين، فكمُّل لنا خمسون ليلة من حين نهي عن كلامنا"، كملت الخمسون وهم على هذه الحال.

يقول: "ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى...".

الذي يظهر أن بيته كان بعيداً لا يسمع النداء، وبالتالي لا يجب عليه حضور الجماعة، فصلى في السطح، يقول: "فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منها قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ"

جاءه الفرج، ولذلك إذا استحکم الظلام انفلق الصبح، فهما طال الليل وظلمته فإن الذي يعقبه ضياء الصباح، ومهمما استحکمت الأمور الضيقة، والأمور الشديدة على الإنسان فإنه يعقب بعد ذلك الفرج، والله -عز وجل- يقول: **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** [الشرح: 5-6].

والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: **(الن يغلب عسر يسرى)**⁽¹⁾، فينبغي للإنسان أن يحسن ظنه بالله -عز وجل- وأن يؤمل خيراً مع إصلاح الحال والعمل والقصد، فهما اشتدا به الأمور وضاقت عليه الأحوال فإن الفرج قريب، ولكن ينطرب بين يدي الله -عز وجل- ويتصدر إليه، فيكون حاله أقرب إلى الله -تبارك وتعالى-، وإنما ساق الله له الشدة، ليخلصه ويمحصه وينقيه، لا ليكسره، ويرديه، وبهلكه، فإن الله أرحم بعده من ذلك، ومن لطفه -تبارك وتعالى- أن البلاء على قدر الطاقة، وعلى قدر الإيمان، بيتلى الناس على قدر إيمانهم، **((فأشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل))**⁽²⁾، فإذا كان في دينه صلابة شدد عليه، وإذا كان في دينه رقة خف عنده، اليوم لو أحد من الناس هجر مثل هذا الهجرة خمسين ليلة، وجاءه خطاب من ملك من ملوك أوروبا، ويقول له: تعال عننا، ونعطيك، ونكرنك، وتسكن منتجعات، ماذا سيفعل؟ أنا أعرف رجلاً عمره بالخمسين -تقريباً- لا يدخل المسجد أبداً الذي بجوار بيته، والسبب أنه قال له أحد الجيران: ما رأيناك في صلاة الفجر، يقول: يتهمني؟، أنا لا أصلني؟، أنا آتي أصلني من أجله؟ فمقاطع المسجد مقاطعة كاملة، كيف هذا لو هجر؟! نسأل الله العافية.

فأقول: الناس على قدر ما عندهم من إيمان ويقين بيتلون، وهذه حکمة في التربية، فمعامل الناس بحسب قدرتهم، في تربية الزوجة، وتربية الأولاد، في تربية من حولنا، في معاملتهم، من الناس من تكله إلى إيمانه وتشد عليه، وتنقو عليه ويتحمل، ومن الناس من يحتاج إلى مداراة ومراعاة وتكتبه أحياناً بالمال والعطية، وما أشبه ذلك، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- تعرفون في سبي أوطاس بعد غزوة حنين والطائف، أعطى عيينة بن حصن الفزارى مائة من الإبل، وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل، وأعطى معاوية بن أبي سفيان مائة من الإبل، وأعطى أبا سفيان مائة من الإبل، وأعطى عباس بن مرداد مائة من الإبل، وترك الأنصار، الذين نصروا الله ورسوله، فوقع ذلك في نفوس بعضهم، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- بين لهم، وجمعهم، وقال لهم: **((يا معاشر الأنصار، ألم أجدكم ضللاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟))**، كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن، قال: **((ما يمنعكم أن تجبيوا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟))**، قال: كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن، قال: **((لو شئتم فلتـم: جئتنا كذا وكذا، أترضون أن يذهب الناس بالشـاة والبعير وتذهبون بالنبي -صلى الله عليه وسلم- إلى رحالكم؟، لو لا الهجرة**

¹ - أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجهاد، الترغيب في الجهاد (446/2)، رقم: (961)، والمستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة ألم شرح (575/2)، رقم: (3950)، والبيهقي في شعب الإيمان (205/7)، رقم: (10010).

² - أخرجه الترمذى، كتاب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الصبر على البلاء (601/4)، رقم: (2398)، والنسانى في السنن الكبرى، كتاب الطب، أبي الناس أشد بلاء (352/4)، رقم: (7481)، وأحمد (78/3)، رقم: (1481)، وصححه الألبانى.

ل肯ت امراً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار، إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض)).⁽³⁾

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- وكل الأنصار إلى إيمانهم، أعطى الجدد المؤلفة قلوبهم من سادة قريش الذين أسلموا حديثاً يتأنفهم، فكان بعضهم ينادي بعضاً، يقول: تعال إن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، بينما الأنصار إيمانهم ثابت فلم يعطهم من هذه العطية فنفوسهم كبيرة.

هذا وأسائل الله -عز وجل- أن يلهمنا وإياكم رشدنا، وأن يجعل قلوبنا عامرة بالإيمان والتقى، وأن يصلاح أحوالنا جميعاً، وأن يتوب علينا، وأن يعلي منازلنا في الجنة ووالدينا وإخواننا المسلمين، وصلى الله على محمد، وعلى آله وصحبه.

³ - أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف (4075)، رقم: (1574/4)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصير من قوى إيمانه (738/2)، رقم: (1061).